"فيها إنَّ..."

هل سمعتم يومًا عمّا يُسمّى "بنظريّة المؤامرة"؟

هذه النظريّة متداولة كثيرًا في الكثير من الأحداث في العالم، بدءًا من تفجير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك وحتى يومنا هذا. ومن بين الأمور التي تنصّ عليها نظريّة المؤامرة ببساطة، أنّ لا شيء يحدث بالصّدفة ولا شيء يكون كما يبدو عليه، وكل شيء مرتبط ببعضه. يعني باختصار شديد هي المصطلح المتداول عند النّاس والذي نصه: "فيها إنّ...".

كلّنا نسمع هذا المصطلح وخاصة عند حدوث أمر جلل، خاصّة بما يتعلق بالأمور السياسيّة والشؤون الدّولية، خاصة الدّول العُظمى والدّول الاستعماريّة.

لكن لماذا نحن بصدد هذا الموضوع؟ ما أهميّة ذلك وما علاقته بمدونتنا اليوم؟ لماذا نشكك دائمًا بكل شيءٍ؟ لماذا نفكر بعدم نقاء نوايا الاخرين حتى في علاقاتنا الشخصية؟ لماذا لا نأخذ الامور ببساطة، ولماذا نعتقد ان هناك دومًا امراً خفيًّا او أيدي خفيّة وراء كل حدثٍ ؟

فكّرت مليًّا في طرح هذا الموضوع خاصّة أنني لست بصدد المدوّنات التحليليّة، عميقة الأبعاد والنتائج. إلّا أنّ الحاجة دفعتني إلى التّطرق إلى هذا الموضوع الشائك.

بالحقيقة أنّ الذي دفعني إلى خوض هذا الموضوع، هي التقوّلات والتساؤلات التي قُمنا بطرحها في مدونة الأسبوع الماضي حول التّبرعات للّاجئين السّوريين. والتّي بادر إليها فلسطينيو الداخل وأهلنا في القدس.

طبعًا كما هو معهود عندنا دائمًا، وكما يُقال "بعد ان صحونا من أثر الصدمة"، بدأت التساؤلات والشّكوك تنهال من كل حدبٍ وصوبٍ. وبدأ كمٌ هائلٌ من الأسئلة وكلّها تثير الشّكوك حول الأشخاص القائمين على المشروع، وأكثر هذه التساؤلات يدور حول قضيّة كيف تسمح دولة إسرائيل لهؤلاء الأشخاص بنقل هذه المبالغ الطائلة إلى تركيا أو إلى سوريا، التي ما زالت تُعتبر دولة مُعادية، الأمر الذي يعاقب عليه القانون؟ ماهي مصلحة دولة إسرائيل بحدوث ذلك، وماهي المكاسب التي تسعى إليها من وراء هذا العمل؟

سيقول البعض أنّ الهدف من وراء ذلك هو توطين اللاجئين السّوريين في بيوت حجريّة حتى لا تحدث أزمة عالميّة ومنعهم من الوصول إلى دول أوروبا التي ترزح تحت وطأة هذا العبء الثقيل.

بنظري أنّ دولة إسرائيل تسمح بذلك حتى تقول للعالم عامة وجيرانها خاصّة: انظروا كيف نحن كدولة ديمقراطية متنوّرة ومتقدّمة نسمح لمواطنينا بالقيام بأعمال خيرية، تهدف إلى مساعدة دول منكوبة، حتى لو كانت دولة عدو. انظروا إلى التربية التي نربيها لمواطنينا (لا تنسوا أن فلسطينيي الدّاخل هم مواطنون إسرائيليون).

هل تعلمون أنّ دولة إسرائيل قد عرضت على لبنان مساعدتها في حل أزمة الكهرباء، رغم عدم وجود علاقات دبلوماسيّة بين الدولتين؟ ممّا لا شك فيه أنّ دولة إسرائيل لو رغبت في إيقاف هذه التّبرعات فإنها ستفعل ذلك بسهولة، لكن العكس هو الصحيح فهي قد سمحت وعلى مرّ السنين بإرسال هذه المساعدات، وأكثر من ذلك أنها سمحت بالماضي بنقل جرحى سوريين إلى المستشفيات الإسرائيليّة.

هل تذكرون برنامج "عرب آيدول"؟ طبعًا تذكرون الفنانين الشّباب من دير الأسد وسخنين والناصرة وغيرها من البلدان العربية في الداخل والذين شاركوا بهذا البرنامج وتواجدوا لفترات زمنيّة متفرّقة في بيروت ولبنان رغم كونها دولة عدو. هذا دليل على رضى إسرائيل عن هذه الخطوة، بل أكثر من ذلك أنّ أخبار هؤلاء الفنانين كانت تتصدر عناوين الصحف ونشرات الأخبار في إسرائيل.

هل رأيتم مدى تأثير وسائل التّواصل الاجتماعي على تصميم وحتى صقل الرأي العام؟ هل رأيتم كيف تجندت وسائل التواصل الاجتماعي من أجل نقل حدثِ محاولة انقاذ الطفل المغربي "ريّان" الذي وقع في البئر، وكيف حبس النّاس في العالم العربي أنفاسهم، وكيف تناقلت وسائل الاتصال الأخبارَ منذ اللحظة الأولى وانتقلت بنا خطوة خطوة، مترًا بعد مترٍ بالحفريات. وكيف هرع النّاس من كلّ حدبٍ وصوبٍ نحو مكان الحدث. ألم تروا النّساء المغربيّات بملابسهن التقليديّة وهنّ يطبخنّ الطّعام لفرق الإنقاذ وللنّاس؟ بالفعل "عرس شعبي" يقوم على أساس

حدث مأساوي. كم بكينا عندما سمعنا خبر وفاة الفتى "ريّان"، وكم شعرنا بالغضب على الدّولة المغربيّة لأنها لم تقم بتحضيرنا نفسيًا لهذه النهايّة المؤسفة.

ومن الفتى المغربيّ انتقلنا إلى الفتى السّوري المخطوف، ومنه انتقلنا إلى حدثٍ آخر وآخر في هذا العالم الصّغير الذي أصبح في متناول اليد، أو بالأحرى في متناول العين والأذن. والسؤال الذي سيطرح نفسه هو ماذا لو قرّرت إحدى وسائل التّواصل مثل "الفيسبوك أو التيك توك" تنصيب أحدهم رئيسًا لدولة أو بالعكس إقالة رئيس، مثلما اتّهمت مصر قناة "الجزيرة " بمحاولة الإطاحة بحكم السّيسي في مصر. ماذا لو امتلكنا المال وحاولنا ترويج سلعة ما، أو عادةٍ ما في مجتمعنا، هل كنّا سننجح في ذلك؟ اعتقد أننا سننجح بذلك بلا أدنى شك.

لقد نجحت وسائل التّواصل في جعلنا نتجنّد لجمع التّبرّعات للّاجئين السّوريين، وجعلتنا نشدّ إزر بعضنا البعض بهذه المواقف العصيبة. ولكن للعملة وجهان كما تعرفون، فهل سنكون في المستقبل عرضةً للابتزاز العاطفي الالكتروني؟ يعني هل سنكون، نحن الفلسطينيين، هدفًا رئيسيًا، كما هو الأمر بالنّسبة لدول الخليج، لمن يحتاج تبرعًا أو مساعدة أو دعمًا أيًّا كان؟

هل سيتوجّه النّاس إلينا من الدّول العربيّة والدّول الفقيرة طلبًا للمساعدة؟ هل "فتحنا على حالنا باب لن نتمكن من إغلاقه"، على قولة ستي؟ لا أستبعد ذلك أبدًا.

وهل نستطيع أن ننهي حديثنا بدون طرفة كما عودناكم.

يُحكى أنّ أميرًا كان عنده طبّاخ اسمه سرور، وكان ماهرًا وذكيًا وخفيف دم. وفي أحد الأيام قدّم سرور إلى سيده طعامًا من الباذنجان المتبّل، وعندما شرع الأمير بتناوله وجده طيبًا جدًا، فاستدعى سرورًا وقال له: "ما أطيب هذا الباذنجان وما ألذ طعمه!".

فقال سرور: "أنّ الباذنجان هو أفضل المآكل وأرفعها قدرًا، فإن أكلته متبّلًا بقي طعمه على لسانك طول النّهار وإن أكلته مقليًا أكلت أصابعك معه، وإن أكلته مكبوسًا فهو أشهى المكابيس، وإن أكلته محشوًّا كان شيخ المحاشي".

فانفتحت شهيّة الأمير وبالغ في التهام الباذنجان، إلّا أنه بعد ساعة من الزمن عاد فاستدعى سرورًا وقال له: "ما هذا الباذنجان المنحوس الذي قدّمته إليّ، فإني أشعر بانتفاخ بطني وألم في رأسي".

فقال سرور: " الباذنجان، يا سيدي، طعام رديء، فإن أكلته متبّلًا سبب لك انتفاخًا في البطن، وإن أكلته مقليًا سبب لك تضخمًا في المصران، وإن أكلته مكبوسًا سبب لك غشيانًا في نظرك، وإن أكلته محشوًّا سبب لك أحلامًا مزعجة، وإن..."

فصاح به الأمير: "ويحك أيها المنافق، منذ ساعة جعلت الباذنجان أفضل المآكل، وها أنت الآن تذمّه وتجعله أساس كل العلل".

فأجاب: "العفو يا سيدي، فأنا عبد سعادتكم، لا عبد سعادة الباذنجان، لذلك فأنا أتكلم بما يلائمكم لا بما يلائم مصلحة الباذنجان".

أرجو ألّا يتعامل معنا الناس، نحن الفلسطينيين، مثل التعامل مع الباذنجان.

أرجو لكم دوام الصّحة والعافية

أ.أيمن جبارة